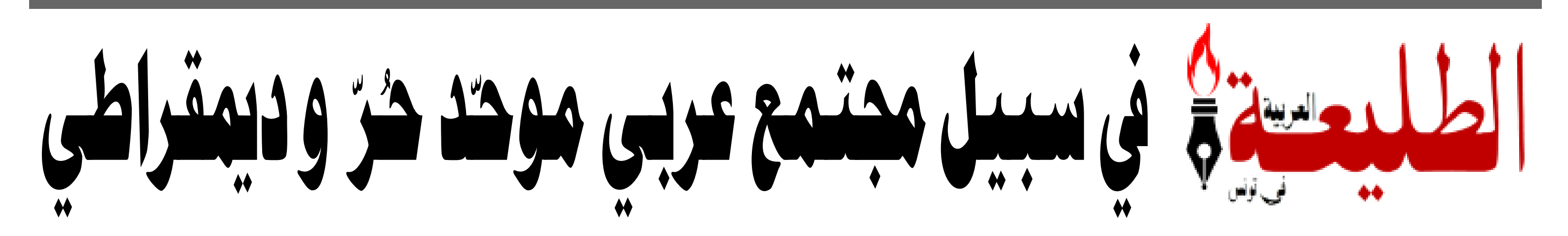
الدكتـور هاشم يحيى الملاح

عروبة وإسلام

رؤية تاريخية في جدلية العلاقـة



منشورات الطليعـة
1985



الدكتـور هاشم يحيى الملاح

عروبة وإسلام

رؤية تـاريخية في جدلية العلاقــة

محاضرة في كلية الآداب جامعة الموصل بتاريخ 25-05-1981

ان العرب بصفتهم الجنسية ، قد وجدوا في جزيرة العرب وانتشروا في منطقة الهلال الخصيب منذ عدة آلاف من السنين (١) . ولكن الوعي بوجودهم باعتبارهم امة متميزة عن غيرها من الامم ، لم يبدأ بالظهور إلاّ قبيل ظهور الاسلام بقليل ، حيث انتشر بينهم شعور بوحدة النسب ، وأخذت اللغة العربية الفصحى تطغى على اللهجات القبلية ، وراح شعراؤهم ينظمون القصائد بهذه اللغة . كما اخذت القبائل العربية تعقد المحالفات فيما بينها ، وتنظم الاسواق التجارية ، وتتجه في عبادتها نحو طقوس وتنظيمات موحدة ، تجلت في اتخاذهم مكة مركزاً للحج والعبادة الوثنية وفي اتخاذهم الاشهر الحرم مواسم للحج والتجارة يسود فيها السلام ويتوقف فيها القتال (٢) .

ان اصح ما يوصف به الوعي العربي في هذه المرحلة بأنه وعي سلبي ، اذ كان العربي يدرك قوة العوامل المشتركة التي تربطه بإخوانه العرب ، من خلال مقارنتهم بأبناء الامم الاخرى والذين اسماهم بالاعاجم . فالعربي ، أيا كان انتماءه القبلي ، يستطيع التفاهم مع ابناء القبائل الاخرى بواسطة اللغة العربية الموحدة . بينما لايستطيع ان يفعل الشيء نفسه مع الفرس او الروم او الاحباش. كما يشعر العربي بوحدة التقاليد والعادات ، والارث الثقافي التي تشده إلى ابناء القبائل العربية . لذا فقد كان العربي يشعر بروح الوحدة والتعاطف تجاه ابناء قومه من العرب كلما ابتعد عن موطنه ، او كلما وقع عدوان عليهم من قبل الاعاجم .

وقد تجلى هذا الشعور بصورة واضحة عند العرب حينما انتصر بنو شيبان على الفرس في معركة ذي قار حتى لقد اورد الطبري ان النبي محمد (ص) قال — وكان ذلك في نفس عام البعثة سنة ٦١٠م — (هذا اول يوم انتصف العرب من العجم . وبي نصروا) (٣) .

وقد لعبت الرسالة الاسلامية دوراً كبيراً في توحيد العرب في كافة المجالات. الدينية والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وعمقت لديهم الوعي بالذات،

ألقي هذا البحث ضمن محاضرات الموسم الثقافي في كلية الآداب – جامعة الموصل في ١٩٨١/٥/٢٥ .

ومنحتهم رسالة ذات بعد عالمي . وبذلك نقلت الوعي العربي من حالته السلبية إلى حالة ايجابية .

وقد حققت الرسالة الاسلامية ذلك من خلال الأمور الآتية : —

١ — ان الرسالة الاسلامية قد نزلت على محمد بن عبد الله (ص) وهو عربي من قريش .

٢ — ان الوحي الذي تجسد في القرآن الكريم ، قد نزل باللغة العربية الموحدة. وكان معجزة الرسول إلى قومه . وبالتالي فقد أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للرسالة الاسلامية مما جعل الفقهاء يصفون الشريعة الاسلامية بـ (الشريعة العربية) (٤) ويشترطون فيمن يتصدى للاجتهاد في الفقه الاسلامي أن يبلغ مرتبة الاجتهاد في اللغة العربية أيضاً (٥) .

٣ — لقد أكد القرآن الكريم في عدة آيات صفته العربية باعتبارها صفة مغايرة للعجمة نحو قوله : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (٦) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (٧) (ولو أنزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنون) (٨) (لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) (٩).

ان ماتقدم يدل دلالة واضحة على أن هذا القرآن عربي ، وبلسان العرب انزل (لا انه أعجمي ولا بلسان العجم . فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة) (١٠) .

٤ — لقد سعت الرسالة الاسلامية إلى توحيد العرب ، فدعت إلى توحيد الخالق في مقابل تعدد الآلهة . ودعت إلى طاعة الرسول في مقابل طاعة شيوخ القبائل. وانتصرت لطريقة الحياة المدنية في مواجهة حياة الاعراب البدوية .

إضافة إلى ماتقدم فقد تضمنت جميع الشعائر والطقوس الدينية الاسلامية من صلاة وصوم وحج وزكاة ابعاداً وحدوية واضحة (١١) .

لقد سعى الإسلام إلى تغليب رابطة العروبة على الرابطة القبلية ، ثم سعى لتوحيد العرب في امة واحدة . وقد اتخذ من اللغة العربية الأساس الأول لتحديد هوية العربي فقد روى ابن عساكر أن الرسول (ص) قال :(أيها الناس إن أباكم واحد ، وان ربكم واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم إنما هي اللسان) وفي رواية (انما هي اللسان ،فمن تكلم بالعربية فهو عربي) (١٢). وبذلك يتضح أن المفهوم الإسلامي للعروبة يقوم على اللغة والإنتماء فمن تكلم العربية واعتبر نفسه عربياً فهو عربي .

لقد اعترف القرآن الكريم بحقيقة انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ، وأشار إلى أن من آيات الله اختلاف الوان الناس والسنتهم . ولكنه لم يشأ أن يجعل من ذلك سبباً لتفضيل بعضهم على بعض أو داعياً من دواعي الخصام وإنما دعاهم إلى التعاون فيما بينهم وقرر أن أساس التفاضل عند الله التقوى وهي تعني الالتزام المخلص بالأوامر الآلهية . جاء في القرآن الكريم : (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكروانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١٣).

على ضوء ماتقدم يتبين أن مكانة العرب في الإسلام تنبع من كونهم أول من آمن بالرسالة الإسلامية ، واستوعب تعاليمها وجاهد من أجل تجسيد هذه التعاليم في الارض . كما تنبع من قدرة العرب بحكم لسانهم العربي على تفهم معاني الرسالة الإسلامية وتوضيحها للناس . لذا فقد وصفهم القرآن بقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس ،تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكروتؤمنون بالله(١٤).

وإذا كانت الرسالة الأسلامية قد بدأت بالعرب لأنهم كانوا أكثر من غيرهم استعداداً لحملها ، فأن ذلك لايعني أنها قد جاءت مقصورة عليهم كما ذهب بعض الباحثين (١٥) . إنما بدأت الرسالة الإسلامية بالعرب لتصل من خلالهم إلى الناس كافة .وقد نص القرآن الكريم على ذلك صراحة بقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (١٦) ،)وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)(١٧). وهكذا فقد وقع على عاتق العرب واجب التبشير بهذه الدعوة وتبليغها إلى الناس كافة .

وهكذا فما كاد العرب يتوحدون في أمة واحدة حتى انطلقوا في حركة الفتح التي استهدفت تحرير الارض العربية من التسلط الفارسي والبيزنطي ، وخلق الأجواء المناسبة لنشر العقيدة الجديدة بين سكان البلاد المحررة . وقد شجع الخليفة عمر بن الخطاب ابناء القبائل العربية على المساهمة في الفتوح وسجل أسماءهم في ديوان العطاء .كما قام بأنشاء مدن جديدة لأسكان الجند من العرب ، فأنشأ البصرة والكوفة والفسطاط وقد أصبحت هذه المدن فيما بعد مراكز للثقافة العربية حيث أزدهرت فيها الدراسات اللغوية والشرعية (١٨).

ويلاحظ ان الخليفة عمر بن الخطاب قد اعطى عناية خاصة للعرب ، فمنع استرقاق العربي لاى سبب كان . كما منح نصارى العرب القاطنين في سورية والعراق معاملة مفضلة ، حتى لقد وافق على اعفاء نصارى بني تغلب من دفع الجزية ، على ان يدفعوا عوضا عن ذلك الزكاة إلى الفقراء مضاعفة (١٩) . وذلك أن (بنى تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية) (٢٠) اما من اراد من نصارى العرب المساهمة في الجهاد إلى جانب المسلمين فقد اسقطت عنه الجزية (٢١) ، لانها (ليست ضريبة دينية ، علة وجوبها هي المخالفة في الدين ، بل كانت بدلا من الجزية ، عندما اقتضت ضرورات الامن قصر الجندية على المسلمين) (٢٢) .

اما سكان البلاد المفتوحة ، فقداخذوا يحتكون بالعرب الفاتحين في شتى المجالات الادارية والسياسية ولاقتصادية وراح الكثير منهم يعتنقون الدين الاسلامي ، ويتعلمون اللغة العربية .بل ان الكثير منهم قدانتمى إلى قبائل عربيةعن طريق الولاء حتى لقد اصبحت كلمة موالي تعني المسلمين من غير العرب (٢٣) . ولم يكن سكان البلاد المفتوحة يفرقون في البداية بين العروبة والاسلام ، بل كانوا يعدون من يعتنق الاسلام منهم مستعربا (٢٤) فقد اورد الطبرى ان أمير خراسان وما وراء النهر اشرس بن عبدالله السلامي (٧٢٩ — ٧٣٩ م) كان قد وعد من يسلم من العجم باعفائه من ضريبة الخراج ، فأقبل الناس على دخول الاسلام ، فشكا الدهاقين اليه من قلة الخراج بقولهم : (ممن نأخذ

الخراج ، وقد صار الناس كلهم عربا) (٢٥) وهم يريدون من كلمة عرب المسلمين الجدد من الفرس كما اورد البلاذرى ان ابا جعفر المنصور سأل مولى لهشام بن عبدالله (١٣٢هـ) عن هويته فقال : (ان كانت العربية لسانا فقد نطقنا بها ، وان كانت دينا فقد دخلنا فيه) (٢٦).

ويبدو ان الخلافة الأموية كانت تشجع هذا الربط بين العروبة والاسلام واعتبار كل من يتعلم العربية ، عربيا ، فقد روى البلاذرى ان الحجاج قال يوما لاهل الكوفة : (لايؤمنكم الا عربي) فوثب البعض بالقارىء يحيى بن وثاب ، وهو مولى كان يؤم في الصلاة ليمنعوه من ذلك . فأنبهم الحجاج قائلا : (ويحكم انما قلت عربي اللسان) (٢٧) .

لقد ادى انفتاح العرب على سكان البلاد المفتوحة في اطار الاسلام إلى بروز ظاهرة الاندماج بين العرب والموالي فأقبل الموالي على اكتساب الثقافة العربية والمتمثلة باللغة والادب العربي اضافة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الاسلامي حتى لقد برز من بينهم علماء يشار لهم بالبنان .

كما اقبل بعض العرب على تزويج بناتهم للموالي ، وهي ظاهرة ترفضها العقلية العربية القائمة على العصبية القبلية . حتى لقد شكا أمير الكوفة عبدالحميد ابن عبد الرحمن إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز منها بقوله : (اني وجدت الموالي يتزوجون إلى العرب والعرب إلى الموالي) فرد عليه الخليفة بقوله : ان الطمع من جانب بعض العرب والبطر من الموالي وراء ذلك . ثم قال : (ولا احرم حلالا ولا احل حراما) (٢٨) .

لقد أدى هذا التطور وتوسع ظاهرة التعريب إلى تجاوز مفاهيم النسب عند العرب .يقول الجاحظ : (واذا كان المولى منقولا إلى العرب في اكثر المعاني ، مجعولا منهم في عامة الاسباب ، لم يكن ذلك بأعجب ممن جعل الخال والدا والحليف من الصميم) . لذا فقد اعتبر الجاحظ ان اللغة والثقافة والسجايا اساس العروبة (٢٩). إلى جانب المفهوم المدني الاسلامي للعروبة . الذي اخذ

يستقر ويتوطد نتيجة كثرة المستعربين من سكان البلاد المفتوحة ، فقد كان المفهوم القبلي للعروبة يؤكد على صراحة النسب والفصاحة في اللغة ، باعتبارها هي العناصر الاساسية لتحديد هوية العربي ، وكان مما يعزز هذا الاتجاه ، ثقة ابناء القبائل العربية بأنفسهم نتيجة اعتناقهم للاسلام ، ومساهمتهم البارزة في الفتوحات العربية الاسلامية ، وشعورهم بأن الدولة العربية الاسلامية دولتهم . وقد ترتب على هذه الأمور شعور ابناء القبائل العربية بنوع من الاستعلاء على الموالي وغيرهم من سكان البلاد المفتوحة ، ورفض التعامل معهم على اساس المساواة والاحترام المتبادل (٣٠) .

وقد حاول الامويون أن يكبحوا جماح هذه النزعة القبلية لانها لا تأتلف وتكوين الامة المتماسكة ، ولا تنسجم مع فكرة الامة الواحدة . وقد اورد الطبرى خطبة لزياد بن ابيه في البصرة تعبر عن ضيقه بالتعصب القبلي . وكان مما جاء فيها : (... أما بعد ، فأن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ... ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام .... قربتم القرابة وباعدتم الدين ... كل امريء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معاداً .... أياى ودعوى الجاهلية فإني لا أجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه) (٣١).

وفي المقابل فقد برز بين الموالي تيار يتعصب للتراث الفارسي القديم . ويناصب العروبة والاسلام العداء . وقد عرف اصحاب هذا التيار بالشعوبيين . وقد تطورت هذه الحركة في العصر العباسي حتى غدت خطراً على الدين والدولة. وقد أشار الجاحظ إلى أن عامة من ارتاب بالاسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ،وان أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف (٣٢) .

وقد أرجع الجاحظ ذلك إلى حسد الشعوبية للعرب وحقدهم عليهم :
(ثم أعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه ،ولا

أشد استهلاكاً لعرضه ،ولا أطول نصباً ،ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ...) (٣٣) . لذا فقد عمد هؤلاء الشعوبيون إلى التشكيك بالتراث العربي الاسلامي ورجاله . وقد وصف لنا الجاحظ موقف أحد هؤلاء الشعوبيين بقوله :)فإن استرجع أحد أصحاب الرسول (ص) فتل عن ذكرهم شدقه ، ولوى عند محاسنهم كشحه ، وإن ذكر شريح جرجه ، وإن نعت له الحسن استثقله ، وإن وصف له الشعبي استحمقه ، وإن قيل له ابن جبير استجهله ، وإن قدم عنده النخعي استصغره. ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسة أردشير بابكان ، وتدبير انوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان) (٣٤) . لقد واجه الكتاب والمؤرخون العرب من أمثال الجاحظ (٣٥) وابن قتيبة (٣٦) ، والأصمعي (٣٨) وغيرهم هذه الهجمة الشعوبية عن طريق تأليف الكتب التي تفند مزاعم الشعوبية ، وتؤكد اصالة العرب في الجاهلية والإسلام ، من خلال جمع تراثهم الأدبي والثقافي في مؤلفات شاملة ، وابراز دورهم العظيم في الفتوح ، وفي حمل الرسالة الإسلامية إلى العالم .

أما فقهاء الشريعة الاسلامية ، فقد أكدوا جميعاً ماعدا الخوارج على ضرورة الترابط بين العروبة والإسلام من خلال اشتراطهم فيمن يتولى الخلافة أن يكون عربياً من قريش استناداً إلى الحديث الذي يروونه عن الرسول (ص) :

(الائمة من قريش) (٣٩) ان موقف الفقهاء هذا ، يعني أن هوية الدولة الإسلامية ومن وجهة نظر الشريعة الإسلامية ، ينبغي أن تبقى عربية ، بحكم عروبة رئيسها وشريعتها . وقد اكتسب هذا الشرط أهميته الخاصة منذ النصف الثاني من العصر العباسي ،حينما أخذ المتغلبون من العجم يحاولون السيطرة على الخلافة (٤٠) لقد استمر الفقهاء على التمسك بالموقف أنف الذكر حتى الوقت الحاضر، بل إن أحد أبرز الفقهاء وهو ابن تيمية الذي عاش في القرن السابع الهجري، قد ذهب أبعد من ذلك ، حينما دعا إلى سيادة اللغة العربية بين جميع المسلمين بحيث تحل محل اللغات الأعجمية كالفارسية والتركية وغيرها (٤١).

ومن هنا ، فليس من الغرابة بمكان أن يعمل محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ — ١٢٠٦هـ / ١٧٠٠ — ١٧٩٢م) وهو المتأثر كثيراً بفكر ابن تيمية على قيادة حركة تستهدف على مستوى الفكر الديني التجديد السلفي لعقائد الإسلام ، وهو موقف معاد لنمط الفكر العثماني المثقل بالشعوذة والخرافة ، وعلى مستوى الفكر السياسي ، اشتراط أن يكون الخليفة عربياً من قريش ، وهذا يعني الدعوة لنقل السلطة السياسية من أيدي الأتراك العثمانيين إلى أيدي العرب (٤٢). أما على المستوى العملي ، فقد أقامت الحركة الوهابية دولة عربية في نجد وراحت تجاهد من أجل تحرير العرب من قبضة العثمانيين . وإذا كانت الحركة الوهابية لم تنجح في تحقيق أهدافها السياسية نتيجة تغلب الدولة العثمانية وحليفها محمد علي حاكم مصر عليها بقوة السلاح ، فأن نشاطها في مجال الإصلاح الديني قد استمر يفعل فعله .

وكان أبرز رجال الإصلاح والتجديد الديني اللذين ظهروا بعد محمد بن عبد الوهاب هو جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ — ١٣١٥ هـ / ١٨٣٨ — ١٨٩٧م) الذي رأى في (شذوذ الأتراك عن أن يتعربوا كما تعربت من قبلهم الدول الأيوبية والمملوكية والبويهية ومحمد علي واسرته) (٤٣) العقبة المانعة من احراز التقدم باتجاه توحيد العرب والأتراك في إطار العروبة . يقول جمال الدين الأفغاني مانصه : (فالأتراك أهملوا أمراً عظيماً ، وحكمة نافعة ، قالها السلطان محمد الثاني ، رحمة الله عليه ، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم . وهي قبول اللسان العربي لساناً للدولة ، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم كي يفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله . فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه وذلك ماتم ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان) (٤٤) .

ويلاحظ ان المدرسة التجديدية للفكر الاسلامي ، والتي تمثلت بجمال الدين الافغاني وتلميذه محمد عبده ، ورشيد رضا ومن تابعهم، قد ادركت ان

الرابطة الاسلامية لاتعني العداء للرابطة العربية، بل انها تعني عقد لواء قيادة المحيط الاسلامي الكبير للامة العربية (٤٥) وقد حاولت هذه المدرسة تجديد الفكر الاسلامي وفقا للاسس الاتية :ـ

(سلفية دينية، تعود إلى المنابع الاولى والنقية والبسيطة للاسلام، متجاوزة ومتخطية ومسقطة البدع والخرافات التي اثقلت العقل العربي الاسلامي بالقيود والاغلال. وعقلانية اسلامية، تستخدم العقل وبراهينه في فهم الدين وفقه نصوصه ووعي مراميه وتجدد ذاتي، يبعث من ترسانة الامة الفكرية وتراثها الحضاري خير مايعينها على مواجهة المهام المعاصرة ومجابهة التحديات وإلى النظر في الحضارة الغربية من موقع مستقل ومتميز لمعرفة اسرار تفوق الخصوم، وذلك حتى نمتلك هذه الاسرار، ونتمثلها ونستعين بها في الصراع)(٤٦).

وقد سار عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) على نفس الطريق الذي سار عليه جمال الدين الافغاني من حيث تأكيد دور العرب الحضاري وأحقيتهم في قيادة الدولة بدلا عن الأتراك العثمانيين، لان لغتهم اغنى لغات المسلمين، وهم اعرق الامم في اصول الشورى (٤٧). غير ان الكواكبي ذهب في التوجه القومي العربي مذهبا ابعد من مذهب مدرسة التجديد الاسلامي حينما دعا في كتابه طبائع الاستبداد إلى اجتماع كلمة العرب بصرف النظر عن اديانهم فقال : (ايها العرب المسلمون، ان انكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم، فأنهوا عن المنكر ان كنتم مؤمنين، وانتم ايها العرب من غير المسلمين، ادعوكم إلى تناسي الاحقاد واجلكم ان لاتهتدوا إلى وسائل الاتحاد، وأنتم المتنورون السابقون، فهذه امم اميركا قد هداها العلم للاتحاد الوطني دون الديني. فما بالنا نحن لانفكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق، فيقول علماؤنا لمثيري الشحناء من الاعاجم والاجانب بيننا: دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا، دعونا نجتمع على كلمات سواء، الا وهي: فلتحي الامة، فليحي الوطن، ولنحي طلقاء أعزة) (٤٨).

يبدو مما تقدم ، ان العوامل التي كانت تقف وراء تغليب الرابطة العربية على الرابطة الاسلامية عند الكواكبي ومن جار بعدُه من دعاة القومية العربية ما يلي : —

١ — تأثرهم بالحضارة الغربية واطلاعهم على انظمة الحكم فيها والتي قامت بالدرجة الاولى على اساس الرابطة القومية والوطنية بدل الرابطة الدينية .

٢ — ظلم الاتراك العثمانيين للعرب وسوء ادارتهم للولايات العربية مماجعلها تعيش في ظلمات الجهل والتخلف.

٣ — استغلال الاتراك العثمانيين للرابطة الاسلامية من اجل اخضاع العرب لحكمهم ومنعهم من تأكيد هويتهم المتميزة.

لقد استمر قادة الفكر القومي بعد الكواكبي على اعتبار اللغة والثقافة ابرز مقومات القومية العربية. كما اكدوا على وجوب (ابعاد الدين عن السياسة ، كي تنصهر الامة في بوتقة تقدمية واحدة ، على نحو مافعل الغرب في اعقاب الاصلاح الديني)(٤٩) وكي يتمكن غير المسلمين من العرب في المساهمة (كمواطنين في سير الحياة القومية وتوجيهها، دون ان تقف عقائدهم الدينية عائقا يمنعهم من الاسهام القلبي التام . وهذا شيء لايستطيعون ان يقوموا به اذا ظل الدين هو المحور الذي تدور عليه الحياة العامة) (٥٠) . وقد لوحظ ان الاسلام بعد مرور اربعة عشر قرنا على ظهوره ، لم يعدكما بدأ، فقد ظهرت فيه فرق وطوائف مختلفة ،لكل منها فهمها الخاص للاسلام . فاذا ما قامت الدولة على اساس الاسلام ، فإنها لابد ان تختار المذهب الذي تعتنقه كما فعلت الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، مما سيؤدي إلى انحيازها إلى جانب مذهب اسلامي دون المذاهب الاخرى . وهذا سيؤدي بدوره إلى تعميق الانقسام بين المواطنين المسلمين انفسهم . وقد عبر عن هذه الناحية الرئيس القائد صدام حسين، امين سر القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في القطر العراقي في كراس (نظرة في الدين التراث) (٥١)بصورة جيدة حيث يقول :

(المطلوب منا هو ان نكون ضد تسييس الدين من قبل الدولة وفي المجتمع. وضد اقحام الثورة في المسألة الدينية، وان نعود إلى اصل عقيدتنا، وان نعتز بالدين بلا سياسات للدين، لانك حين تجعل نفسك واعظا أو مرشداً دينيا وتطلب، من موقع رسمي او حزبي من الناس ان يؤدوا الطقوس الدينية، انما يتوجب عليك ان ترشدهم إلى كيفية اداء تلك الطقوس، وما يترتب عليها من التزامات تبعية واذا مادخلت في ذلك فسوف تبدأ المشاكل والتعقيدات، حيث تبدأ الاختلافات وفق اجتهاد المذاهب الاسلامية) (٥٢).

ثم (ان تدخل الدولة لوضع سياسة معبرة عن الدين في منهجنا التفصيلي الدنيوي يجعل شعبنا ينقسم وفقا للانتماء الديني والطائفي، لانك عندما تبحث السياسة الدنيوية على اساس اتصالها بالفقه الديني فأنك يجب ان تكون ازاء اجتهاد ديني ومذهبي خاص، لان الشعب وانت جزء منه ليس موحداً في النظرة المذهبية والدينية. وحالة من هذا النوع تجعل الدولة واجهزتها وقيادتها امام اختيارات منحازة انحيازاً اكيداً في الاجتهاد الديني والمذهبي في التصور والممارسة) (٥٣). يضاف إلى ماتقدم ان التطور الحضاري الذي حصل في العالم وفي مجتمعنا، قدغير اوضاعه العامة وفي كافة المجالات، بصورة جذرية بحيث لم يعد بالامكان قياس المشاكل التي تواجه مجتمعنا المعاصر على المشاكل التي واجهت مجتمعنا في ظل الحضارة العربية الاسلامية. ومن ثم، فان المشاكل التي تواجه (المجتمع الحديث الذي نعيش فيه والمطلوب منا معالجتها والتعامل معها مختلفة اختلافاً اساسيا عن المشاكل التي واجهتها العصور الاسلامية الاولى، التي وضعت فيها قواعد التشريع والفقه الاسلامي) (٥٤). وعليه فقد غدا (من غير الممكن ان نحشر معالجتنا للشؤون الدنيوية للحياة الراهنة حشراً فقهياً دينياً) (٥٥).

إن الدعوة لفصل الدين عن السياسة لاتعني التنكر للدين وقيمه في نظر رجال الفكر القوي، بل هي في نظرهم مما يخدم الدين والقومية في آن واحد. لأن القومية حركة روحية تستمد من الدين القوة والحياة وهي (لاتعارض ديناً من الاديان ولاتنافيه، بل تقبل على الاديان جميعاً. وان عارضت

القومية شيئاً ، فليس هو الروحية الدينية ، وانما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية) (٥٦).

'ن ماتقدم يدل على أن القومية العربية هي إلى جانب الدين ضد النزعات اللادينية والالحادية وقد أكدت ادبيات حزب البعث العربي الاشتراكي على هذه الناحية بشكل قوي . يقول الرئيس القائد صدام حسين :(ان حزبنا ليس حيادياً بين الالحاد والايمان ، وانما هو مع الايمان) (٥٧) . كما أكد على اعتبار الدين احد الروافد الاساسية المكونة للثقافة العربية حيث اوضح :) ان من الامور المركزية في مجتمعنا والمؤثرة في خلقنا وتراثنا وتقاليدنا هو الماضي بكل ما يحمل من عوامل الحياة وتقاليدها وقوانينها .وكذلك الدين ولكن عقيدتنا ليست حاصل جمع كل مايحمله الماضي والدين وانما هي نظرة شمولية متطورة للحياة ، وحل شمولي لاختناقاتها وعقدها لدفعها إلى أمام على طريق التطور الثوري) (٥٨).

يتضح مما تقدم أن تمسك دعاة الفكر القومي بالدين والتراث ليس بأضعف ولا أقل من دعاة الفكر الديني ، ولكن الفارق الاساسي بينهما هو أن دعاة الفكر القومي يرفضون الجمود والاستنساخ عن القديم ويتمسكون بحقهم في التفكير المبدع الذي يستلهم من الماضي دروسه المركزية في مواجهة مشاكل ومعضلات العصر الحديث . أما دعاة الفكر الديني فأنهم يحصرون همهم في شرح النصوص وتوضيحها وان اعطوا لانفسهم الحق في الاجتهاد فهو الاجتهاد المحصور بحدود التفسير والقياس .

المصادر والمراجع :-

١ - أحمد سوسة ، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ، بغداد ١٩٧٩ ، ص٢٤ - ٣٧ .

٢ - العلي ، صالح أحمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ ص١٣١ـ٢٠٨ ، محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ، القاهرة ١٩٧٥ ص٣٩ - ٤٦ .

٣ - الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الطبري ، مصر ١٩٦٨ ج٢ص١٩٣ .

٤ - الشاطبي ، ابو اسحاق ابراهيم بن موسى ، الموافقات في اصول الشريعة ،

مصر (المكتبة التجارية الكبرى) بلا تاريخ ، ج٢ص٦٤ — ٦٥ .
٥ — المصدر نفسه ، ص١١٤— ١١٨ .
٦ — سورة الشعراء ١٩٥.
٧ — سورة فصلت ٤٢.
٨ — سورة الشعراء ١٩٨.
٩ — سورة النحل ١٠٣ .
١٠ — الشاطبي ، الموافقات في اصول الشريعة . ج ٢ص٦٤ .
١١ — محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ص٤٩ — ٦٠ .
١٢ — صبحي الصالح ، ندوة اللغة واثرها في الوحدة العربية ، مجلة المستقبل العربي، بيروت ،عدد ١٠ — ١١ / ١٩٧٩ص١٥٣ — ١٥٤، تهذيب ابن عساكر ، مطبعة دمشق ج٢ ص ١٨٩.
١٣ — سورة الحجرات ١٣.
١٤ — سورة البقرة ١١٠ .
١٥ — لقد ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين من أمثال السيد وليم موير، يراجع الدكتور حازم نسيبة، القومية العربية ، بيروت ١٩٦٢ص٤٩.
١٦ — سورة الانبياء ١٠٧.
١٧ — سورة سبأ ٢٨.
١٨ — نسيبة، حازم زكي ، القومية العربية ،ص ٤٩ — ٥٠ .
١٩ — المرجع نفسه ص٥٠.
٢٠ — ابن سلام ، ابو عبيد القاسم ، الاموال ،(صححه وعلق عليه ، محمد حامد الفقي) مصر ، بلا تاريخ ، ص ٢٨ .
٢١ — الطبري، تاريخ ج٤ ص١٥٦.
٢٢ — محمد عمارة، الاسلام والوحدة القومية، بيروت ١٩٧٩ ص٩٥.
٢٣ — نسيبة، القومية العربية ، ص ٥٠.
٢٤ — الدوري: عبدالعزيز، الجذور التاريخية للقومية العربية ، بيروت١٩٦٠ ص ١٧.
٢٥ — الطبري ، تاريخ ، ج٧، ص ٥٥.
٢٦ — البلاذري ، أنساب الاشراف —مخطوطة ق ٢ص٧٥٠ ، نقلا عن : الدوري، عبدالعزيز، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، مجلة المستقبل العربي بيروت عدد ٢٤ ،شباط ١٩٨١ ص٤٢).
٢٧ — المصدر نفسه ،ق ٢ص ١٢٢٥.

٢٨ ـ المصدر نفسه ، ق ٢ص١٢٩ ، الدوري ، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب ص ٤٤.
٢٩ ـ المصدر نفسه ص٤٤ ـ ٤٥ ، الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، القاهرة١٩٦٤ ج١ ص ٣٠ ـ٣١.
٣٠ ـ الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٢٥ ـ ٢٦.
٣١ ـ الطبري ، تاريخ ،ج ٥ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.
٣٢ ـ الدوري، عبدالعزيز ، الجذور التاريخية للشعوبية، بيروت ١٩٨٠ص ٥٨ ـ ٥٩ .
٣٣ ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ط٣ ، ج٣ ، ص٢٩ ـ ٣٠.
٣٤ ـ المرجع السابق ص ٥٤ ، الجاحظ ، الرسائل الثلاث ج٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
٣٥ ـ يراجع على سبيل المثال كتاب البيان والتبيين.
٣٦ ـ يراجع على سبيل المثال كتاب عيون الاخبار و كتاب المعارف .
٣٧ ـ يراجع على سبيل المثال كتاب الاغاني و كتاب ملوك العرب في الجاهلية .
٣٨ ـ يراجع على سبيل المثال كتاب أنساب الاشراف ، وكتاب فتوح البلدان.
٣٩ ـ الماوردي، علي بن محمد بن حبيب ، الاحكام السلطانية، مصر ١٩٦٠ ص ٦ محمد يوسف موسى ، نظام الحكم في الاسلام ، مصر ١٩٦٢ ص ٣١ ـ ٤٢.
٤٠ ـ محمد عمارة ، الجامعة العربية والجامعة الاسلامية ، مجلة المستقبل العربي ، بيروت ، عدد ٢٤ ، شباط ١٩٨١ ص ٧٤.
٤١ ـ الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٥٨.
٤٢ ـ المرجع السابق ، ص ٧٤.
٤٣ ـ محمد عمارة، الجامعة العربية والجامعة الاسلامية ، ص ٧٩.
٤٤ ـ جمال‌الدين الافغاني ، الاعمال الكاملة لجمال‌الدين الافغاني، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٢٢٤.
٤٥ ـ المرجع السابق ،ص ٨٠.
٤٦ ـ نفس المرجع ، ص ٧٥.
٤٧ ـ الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص ٥٩.
٤٨ ـ نفس المرجع ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .
٤٩ ـ نسيبة، القومية العربية ، ص ١٣٤.
٥٠ ـ نفس المرجع ، ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

٥١ ـ صدام حسين ، نظرة في الدين والتراث ، (حديث الرفيق صدام حسين في اجتماع مكتب الاعلام بتاريخ ١١/ ٨ /١٩٧٧) بغداد ، ١٩٧٨.
٥٢ـ المصدر نفسه ، ص ١٢–١٣
٥٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ – ١٨.
٥٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣.
٥٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣.
٥٦ ـ نسيبة ، القومية العربية ، ص ١٣٦.
٥٧ ـ المصدر السابق ، ص ٥٠ .
٥٨ ـ المصدر السابق ، ص ١ .

